مفهوم مصطلح "الطبقة" عند ابن سلام الجمحي.

The Concept of the Term "Class" in Ibn Salam al-Jomahi.

سمير سوالمية *
samir soualmia
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة (الجزائر).
University of August 20 1955 Skikda- Algeria
samir.soualmia@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/06/30	تاريخ القبول: 2021/09/23	تاريخ النشر: 2022/03/02

ملخص البحث

يعد مصطلح"الطبقة"، من المصطلحات النقدية القديمة التي يكتنفها اللبس والغموض، فعلى الرغم من أن العديد من العلماء واللغويين قد ألّفوا كتبا في الطبقات، إلا أنهم لم يعطوا المصطلح مفهوما واضحا ودقيقا، يمكن الارتكاز عليه في دراستنا للشعراء. وبقي الأمر كذلك لغاية مجيء ابن سلام الجمحي الذي استفاد من دراسات السابقين في الطبقات ليؤلف هو الآخر كتابا في هذا المجال أسماه بـ"طبقات فحول الشعراء"، وهو ما يجعلنا نتساءل عن مفهوم "الطبقة" عنده، التي قسم من خلالها الشعراء إلى عشرة طبقات في الجاهلية، وعشرة في الإسلام، واضعا في كل طبقة أربعة شعراء، معتمدا عنصري الزمن وصفات فنية أخرى.

الكلمات المفتاح: طبقة، ابن سلام الجمحي، فحول الشعراء، نقد قديم.

Abstract:

The term "class" is an old critical term of confusion and ambiguity, although many scholars and linguists have written books in classes. However, they did not give the term a clear and precise concept, which can be built upon in our study of poets. This remained the case until the arrival of Ibn Salam al-Jomahi, who had benefited from the studies of past classes and had also written a book in that area, which he called "The Layers of Poets","Which makes us wonder what the concept of" class "is, by which poets are divided into ten classes in ignorance, and ten in Islam, placing four poets in each class, adopting time elements and other artistic qualities.

Key words: Class, Ibn Salam al – Jomahi, poets' work , old criticism.

* سمير سوالمية: samir.soualmia@hotmail.com

مقدمة:

لقد تعرض نقادنا القدامى للعديد من المصطلحات النقدية، من ضمنها مصطلح" الطبقة"، الذي وجد عند علماء الحديث قبل دخوله للمجال النقدي والأدبي، لذا كان الحديث عن فكرة الطبقة في التراث النقدي العربي من الأهمية بمكان خاصة عند ابن سلام الجمحي، الذي كانت له رؤية خاصة للطبقات، بحيث جعلها رأسية مغلقة، انفرد بها وصنف على أساسها الشعراء في طبقات.

ولما كان ابن سلام الجمحي أوّل ناقد أدبي يصنف كتابا في الطبقات، فهل هذا يعني أنه مبتكر للفكرة ؟ أم أنها وجدت قبله في التراث العربي لدى علماء الحديث واللغويين. وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي أضافه ابن سلام في فكرة الطبقات؟ وما هي المعايير الفنية التي اعتمدها في إنزال الشعراء منازلهم؟

1- نشأة فكرة الطبقة وتطورها:

لقد كان ميلاد فكرة الطبقات عند علماء الحديث، وهذا لدواعي دينية، فمع بداية العصر العباسي كثر الوضع في الحديث: مما دفع بعلماء الحديث إلى التصدي لهذه الظاهرة، وذلك بوضع الرواة في طبقات بعد دراسة أسانيدهم ونقدها، الأمر نفسه شهده الشعر العربي مع بداية عصر التدوين حيث برزت ظاهرة" الانتحال"، مما دفع بابن سلام إلى دراسة هذه الظاهرة، وذلك برد الأشعار إلى أصحابها، ليتمكن في النهاية من وضع الشعراء في طبقات.

وإذا كان ابن سلام –كما روي عنه– أنه كان محدثا راويا، فلا عجب أن تأثر بالفكرة كما هي عند علماء الحديث، هذا التأثر جعله يدخل فكرة الطبقات المجال الأدبي والنقدي، وهذا بنقلها من مجال رواة الحديث إلى مجال الشعراء؛ بحيث جعل من مؤلفه النقدي "طبقات فحول الشعراء " يدور حول هذه الفكرة، والتي أضاف إليها شيئا من ثقافته وذوقه، ودراسته الواسعة للشعر والشعراء، ما جعله ينفرد برؤية خاصة في هذا المجال.

من هنا تكمن أهمية الحديث عن فكرة الطبقة في نقدنا القديم، وكشف اللثام عنها، خاصة عند ابن سلام الجمحي؛ وهذا لا لكونه أوّل ناقد يدخل الفكرة المجال الأدبي والنقدي فحسب، بل لأنه أيضا كانت له رؤية خاصة في ذلك جعلته ينفرد بها عن بقية النقاد ممن ألّفوا في الطبقات.

لا يخفى على فطنة أي باحث في تراثنا الأدبي، أن اتجاه بعض أسلافنا من الأدباء والنقاد نحو دراسة سير الشعراء وأشعارهم، ظهر في بداية الأمر متزامنا مع اتجاه رواة الأدب نحو جمع التراث اللغوي والأدبي عند العرب، وذلك في أواخر عهد بني أمية، وأوائل عهد بني العباس[1].

وقد أدّى هذا إلى قيام بعض علماء الشعر ونقاده بتوثيق هذا التراث، ونقد مصادره، والكشف عن أحوال رواته، ومراتبهم في التلقي والأداء، متأثرين في هذه الناحية بالقواعد التي وضعها العلماء المسلمون لنقد الحديث النبوي[2].

وعليه فقد تأثر النقاد والعلماء بالشعر بعلماء الحديث، الذين كان لهم فضل السبق في وضع قواعد دقيقة لتوثيق النص ونقد رواته، من حيث العدالة والضبط، وصحة الإسناد. وليس هذا فحسب، بل دراسة أحوال رواة النص، وأخبارهم وسيرهم، دراسة علمية موضوعية.

من هنا جاء تأثير منهج العلماء المسلمين في نقد الحديث النبوي، في كثير من رواة العلم العربي والإسلامي، ونقاد الأدب.

وعلى أية حال، فإن اهتمام علماء الحديث بنقد الرّواة ودراسة سيرهم و أخبارهم أدّى إلى ظهور علم الرجال، الذي مهد الطريق لنشأة فن كتابة التراجم والسير في الأدب العربي[3].

ويعد محمد بن سلام الجمحي * من أوائل العلماء النقاد الذين تناولوا أخبار الشعراء وطبقاتهم الشعرية، تناولا علميا على أسس منهجية دقيقة،كما سنرى بعد ذلك، فهو بعد أن فرغ من الحديث عن قضية وضع الشعر الجاهلي، وبعض القضايا التي تتعلق بهذه القضية الأم،كقضية الذوق الأدبي، ونشأة علوم العربية، وأولية الشعر، وتنقل الشعر في القبائل، وذلك في مقدمة هذا الكتاب "طبقات فحول الشعراء " انتقل إلى دراسة سير الشعراء وأخبارهم، من خلال تقسيمهم إلى طبقات.

2-منهج ابن سلام في ترتيب طبقات الشعراء:

بدأ ابن سلام في عرض منهجة الّذي اتبعه في ترتيب طبقات الشعراء بقوله: "ففصلنا الشّعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزّلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قال فيه العلماء"[4].

واضح من كلام ابن سلام أنه اعتمد منهجا تاريخيا فنيا في عرضه لقضية الطبقات، جاعلا من الأداء الفني طريقته في تتبع ما يلتقي فيه شاعر ما مع سواه، بغض النظر عن الاختلاف الزمني، وهذا من خلال تقسيمه للشعراء إلى جاهليين وإسلاميين، رغم أنه لم يكن يفكر في هذا التقسيم، بل أملته عليه طبائع الأشياء. فابن سلام كان يهدف إلى توزيع الشعراء في طبقات تبعا لجودتهم الفنية وكثرتهم الشعرية بالإضافة إلى معايير أخرى لم يصرّح بها.

لقد قسّم ابن سلاّم شعراءه إلى عشر طبقات في الجاهلية وأخرى في الإسلام، واضعا في كل طبقة أربعة شعراء متكافئين معتدلين: "فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط في كل طبقة متكافئين معتدلين"[5].

إنّ ابن سلاّم أشار في أكثر من موضع من كتابه أنه اقتصر على الفحول من الشعراء في الجاهلية أو في الإسلام، ومما يؤكد ذلك أن المتأمل لهذا الكتاب يدرك أن ابن سلام لم يستقص في تراجمه كل شعراء الجاهلية، ولا كل شعراء الإسلام، بل الفحول منهم.

كما أن وضع بعض الشعراء بهذه الصفة، أي: الفحولة، تعني أنهم وصلوا إلى درجة عالية من الصياغة الفنية، أو كما يقول أحد نقادنا المعاصرين واصفا الفحولة الشعرية بأنها: " طراز من السبك وطاقة كبيرة في الشاعرية"[6].

يضاف إلى ذلك اتّساع دائرة ثقافتهم الشعرية وغزارة مروياتهم، من ذلك أن راوية سئل عن الفحل من الشعراء، فقال الراوية: "يريد أنه إذا روى استفحل"[7].

الأمر نفسه يراه الأصمعي حيث يقول: "لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ"[8].

كما سأله تلميذه أبو حاتم السجستاني عن معنى الفحل، فقال الأصمعي:"يراد أن له مزية على غيره، كمزية الفحل على الحقاق"[9].

وعليه فابن سلام واجهته مشكلة كثرة الشعراء، الأمر الذي جعله يقتصر على المشهورين منهم، ممن تتوفر فيهم صفة الفحولة، فوجدهم أربعين شاعرا، وهم الذين يمثلون العصر الجاهلي، مضيفا إليهم أربعين شاعرا من شعراء العصر الإسلامي وفق المنهج نفسه،كما وضع في كل طبقة أربعة شعراء يجمع بينهم التكافؤ والتشابه في أشعارهم.

لكن الأمر المثير للحيرة والتّساؤل هنا يكمن في مفهوم "الطبقة" أو التشابه الذي قصده ابن سلام، والذي أقحم على أساسه كل أربعة شعراء في طبقة واحدة.

لقد حاول محقق كتاب "طبقات فحول الشعراء " –محمود شاكر–أن يجيب عن هذا التّساؤل، مبررا المعنى الذي يذهب إليه ابن سلام من كلمة"طبقة". فكانت خلاصة رأيه في هذه القضية، أن ابن سلام لا يستعمل طبقة بمعناها المتعارف عليه، أي المرتبة أو المنزلة، بل يستعملها بمعنى المذهب أو رأس المذهب.[10] ، وقد رجح هذا التفسير بناء على ورود هذه الكلمة في بعض النصوص التراثية حسب زعمه بهذا المعنى

دون أن يكون على وعي بأن تتبع التطور الدلالي لهذه اللفظة، قد يوضح الكثير من الغموض الذي أحاط بمعناها.

وعلى أية حال، فقد أراد محمود شاكر أن يبين معنى "الطبقة" عند ابن سلام، والتي على أساسها صنف الشعراء في طبقات بناء على التّشابه الحاصل بين شعراء كل طبقة فقال "والتشابه عند ابن سلام لا يعني التطابق، وإنما يعني وجوها من الشّبه بعينها في المناهج مع اختلاف ظاهر يتميز به كل واحد منهم عن صاحبه، وبهذا الاختلاف يكون كل منهم رأسا في هذا المذهب من مذاهب الشعر..."[11].

فمحمود شاكر يذهب إلى أن ابن سلام كان يعني بالطبقة: المنهج، أو المذهب الذي يسير عليه الشاعر، فكل شاعر يمثل منهجا خاصّا، لذا فتشابه الشعراء الأربعة في الطبقة الواحدة إنما هو في الحقيقة تشابه في المناهج مع اختلاف كل منهم عن صاحبه.

ففي قول ابن سلام: "ثم إنّا اقتصرنا –بعد الفحص والنظر والرواية- إلى رهط أربعة، على أنهم أشعر العرب طبقة، ثم اختلفوا بعد –فوجدته صعبا أن يفسر قوله ههنا طبقة، ولم أجد له إلاّ معنى واحدا كأنّه هو الذّي يعنيه ابن سلام، وهو أنهم أشعر العرب في مذهب من مذاهب الشّعر أو في نهج من مناهجه أو ضرب من ضروبه"[12].

فهؤلاء الشعراء الأربعة – حسب محقق الكتاب – هم أشعر العرب في مذهب من مذاهب الشّعر، أو في نهج من مناهجه، أو ضرب من ضروبه، وأن الأربعين شاعرا الذين اقتصر عليهم ابن سلام، والذين قسّمهم إلى عشر طبقات، إنما قسمهم في الواقع إلى عشرة مناهج أو مذاهب من مذاهب الشعر، وهذا ما جعل محقق الكتاب يقع في الكثير من المبالغات والغلو، وهذا بقوله أن لكل طبقة منهجا خاصّا بها تنفرد به عن بقية الطبقات.

غير أن الذي أوقع شاكرا في هذا الغلو والمبالغة في معنى الطبقات هو استبعاده عنصر الزمن من معنى الطبقة، واقتصاره على البعد المكاني، فهو يرى أن الطبق يشمل الغطاء والمغطى أي: الوضع العمودي، وحصره في ذلك دون أن ينتبه إلى أن الوضع المكاني يقابله وضع زماني، فالطبقة من الشعراء تأتي بعد الأخرى، هذا من الناحية المكانية، أما من النّاحية الزّمانية فتعني المساواة.[13]

فإذا كان محقق كتاب،"طبقات فحول الشعراء " قد بالغ قليلا في حصر "التشابه" الذي كان يرمي إليه ابن سلام في التشابه في المناهج أو المذاهب، فإن وجوه الشبه تبقى غامضة إذا تأملنا الشعراء الذين تضمهم كل طبقة، فهناك فروق واضحة في المنهج الشعري لدى الكثير منهم.

وتبدو مظاهر الاضطراب جلية في بعض الطبقات، ففي الطبقة الأولى الجاهلية التي تضم: امرأ القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى نجد بينهم اختلافا واضحا، كما أن اللاّفت للانتباه أن ابن سلام يبدأ في تقديمه لهؤلاء الشعراء ببيان اختلاف النّاس فيهم، ومع ذلك يحشدهم في طبقة واحدة دون أن يقدّم أسباب ذلك[14].

فالقضية هنا تظل غامضة، فعلى أي أساس أقحم ابن سلام هؤلاء الشعراء الأربعة في طبقة واحدة، وبينهم فروق بيّنها ابن سلام نفسه دون أن يعلل مفهوم "التشابه" الذي يبرر هذا التقسيم.

وفي الطبقة الثانية الجاهلية نصطدم بابن سلام وهو يضع كلاّ من: الحطيئة، وكعب بن زهير ضمن الشعراء الجاهليين، رغم أن كليهما شهد الإسلام واعتنقه، كما أن لكلّ منهما شعر كثير في الإسلام وخاصّة الحطيئة.[15]

كما نجده يبدأ الطبقة الثانية بـ"أوس بن حجر" موردا أنه المقدم عليهم، في حين نجده يذكر قبل ذلك: "وليس تبدئتنا أحدهم في الكتاب نحكم له ولا بّد من مبتدأ..."[16]، كما أنه يصّرح في موضع آخر أنّ "أوس" نظير شعراء الطبقة الأولى الجاهلية، إلاّ أن اقتصاره على العدد أربعة هو الذي أخّره إلى الطبقة الثانية: "وأوس نظير الأربعة المتقدمين، إلا أنّا اقتصرنا في الطبقات على أربعة رهط"[17].

فابن سلام غير مطمئن بوضع "أوس" في الطبقة الثانية فيلتمس عزاء لاضطرابه، وذلك حين يقول "كان أوس فحل مضر، حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه "[18].

من هنا يتّضح أنّ حصر الطبقة في العدد أربعة قد أوقع ابن سلام في بعض المزالق،كما هو الحال بالنسبة لأوس بن حجر الذي استحق اعتلاء الطبقة الأولى، إلاّ أن اقتصاره على العدد أربعة هو الذي أخّره إلى الطبقة الثانية.

3-مقاييس ترتيب شعراء الجاهلية في طبقات عند ابن سلام:

لقد ظلت مظاهر الاضطراب قائمة في إنزال الشعراء منازلهم، ففي الطبقة الرابعة الجاهلية التي يقول عنها: "وهم أربعة رهط فحول شعراء، موضعهم مع الأوائل، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة"[19].

فابن سلام يضع كلا من: طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وعلقمة بن عبدة، وعدي بن زيد في الطبقة الرابعة، ومع ذلك فهو غير مطمئن بهذه المرتبة المتأخرة، إلاّ أن قلة شعرهم بأيدي الرواة هو الذي أخرهم إلى هذه الطبقة.

من هنا يتضح أن ابن سلام جعل من" الكثرة "مقياسا نقديا في تحديده لشعراء الطبقة الرابعة، فهؤلاء الشعراء مقلون لذا تم تأخيرهم إلى هذه الطبقة.

فمقياس الكثرة جعله يؤخر طرفة بن العبد، في حين نعلم أنه كان مقدما عند علماء ذلك الوقت وهذا ما عرفناه من قول لبيد "أشعر الناس ذو القروح يعني: امرأ القيس، ثم ابن العشرين يعني: طرفة بن العبد، ثم صاحب المحجن يعني: نفسه "[20].

هنا يتضح أن مقياس "الكم" الذي وضعه ابن سلام بقي سائدا، على الرغم من الآراء التي وجدها أمامه تقدم بعض الشعراء المقلين. ومعنى هذا أن المقياس أو القاعدة هي التي أصبحت تتحكم في التصنيف وليس هوى النقاد، حتى وإن كان ذلك على حساب الجودة التي لم يغفلها ابن سلام.[21]

ونبقى مع الطبقة ذاتها، لنكشف مبدأ الكثرة بوضوح، وهذا من خلال حديثه عن عبيد بن الأبرص، الذي نزل إلى المرتبة الثانية بعد طرفة الذي ذكره ابن سلام بأن قصائده جيدة.

إن ابن سلام يقول عن عبيد "وعبيد بن الأبرص قديم، عظيم الشهرة، وشعره مضطرب ذاهب، لا أعرف له إلاّ قوله:[22]

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

فابن سلام يضع عبيد في الطبقة الرابعة بعد طرفة الذيّ له قصائد حسان جيدة، رغم قلة شعره واضطرابه، فهو لا يعرف له إلاّ قصيدة واحدة.

إذا كان ابن سلام قد أولى "مقياس الكم" عناية بالغة، فإنه في الوقت نفسه لم يهمل مقياس "الجودة" وهذا ما يتضح من خلال حديثه عن الأسود بن يعفر، الذّي وضعه في الطبقة الخامسة "وكان الأسود شاعرا فحلا، وكان يكثر التنقل في العرب، يجاورهم، فيذم ويحمد، وله في ذلك أشعار.وله واحدة رائعة طويلة، لاحقة بأجود الشعر لو كان شفعها بمثلها قدّمناه على مرتبته..."[23].

من خلال تأملنا لما أورده ابن سلام عن الشاعرين: عبيد، والأسود، نجد أنه اعتمد مقياسين نقديين مختلفين في طبقتين متتاليتين، فعبيدا أ خّره إلى الطبقة الرابعة، وهذا لقلة شعره، إذ لا يعرف له إلا قصيدة واحدة، أما الأسود فقد أخره ابن سلام إلى الطبقة الخامسة لقلة قصائده الجيدة، وانفراده بقصيدة جيدة واحدة، إذ لو أردفها بقصيدة أخرى مماثلة من حيث الجودة الفنية لقدّمه عن هذه المرتبة.

وعليه فابن سلام من خلال حديثه عن الشاعرين السالف ذكرهما، يتضح أنه يغلب جانب "الكم" على جانب "الجودة"، فالشاعر المكثر عنده ولو كان شعره قليل الجودة أفضل من الشاعر المقل الجيّد شعره.

وإذا تجاوزنا شعراء العصر الجاهلي إلى طبقة أصحاب المراثي التي تضم هي الأخرى أربعة شعراء وهم: متمم بن نويرة، والخنساء، وأعشى باهله، وكعب بن سعد الغنوي، نصاب بالدهشة، ويجعلنا نتساءل عن التشابه الحاصل بين هؤلاء الشعراء، هل هو تشابه في المضامين أو الأغراض ؟[24] ، ثم لماذا اقتصر الأمر على أصحاب المراثي فقط دون غيرهم، كأصحاب المديح، أو النسيب مثلا.

من هنا يتضح أن ابن سلام قد خرق المقاييس التي أقرّها من قبل، كالكثرة، والجودة الفنية، وأقر بمقياس آخر هو " الموضوع الشّعري الذي يكمن في" الرثاء"، فابن سلام يرى أنّ هؤلاء الشعراء الأربعة يتفقون كلهم في صدق العاطفة؛ فقد أجادوا البكاء، ووجدوا في الحزن سلوى لهم، فكانوا بالتالي شعراء مرهفي الحس.

إضافة لطبقة "أصحاب المراثي"، نجد تقسيما آخر جغرافيا أو إقليميا، وهذا من خلال إيراده "طبقة شعراء القرى العربية"، والتي تضم خمسة مدن هي: المدينة، ومكة، والطائف، واليمامة، والبحرين".

والملاحظ على ابن سلام عند دراسته لشعراء القرى العربية أنه لم يأخذ بالتقسيم الرباعي عند دراسته لشعراء كل قرية على حدة، مكتفيا بالحصر المكاني، مما أحدث تفاوتا في عدد شعراء كل قرية، فعدد شعراء المدينة وفقا لهذا الإحصاء خمسة، في حين وصل عدد شعراء مكة إلى تسعة، ووصل عدد شعراء الطائف إلى خمسة، بينما وصل عدد شعراء مكة إلى تسعة ووصل عدد شعراء الطائف إلى خمسة أما عدد شعراء البحرين فلم يزد على شاعرين.

لقد لاحظ ابن سلام أن شعراء هذه المدن أو القرى قد اختلفوا بفنهم الشعري عمن سواهم من الشعراء العرب الآخرين بتأثير من البيئة التي عاشوا فيها، والتي تركت آثارها الواضحة على شعرهم، وطبعته بطابع خاص وصفه ابن سلام بالليونة والسهولة والرقة والعذوبة[25] على نحو ما قاله عن شعر عدي بن زيد "وعدي بن زيد كان يسكن الحيرة ويراكن الريف فلان لسانه وسهل نطقه"[26].

فابن سلام لم يفرد شعراء هذه المدن بقسم خاص عبثا، وإنما لكونه لاحظ أثر البيئة في نتاجهم الفني الشعري، هذا الأثر ميّزته الرقة والسهولة والعذوبة والليونة مما جعلهم يتميزون عن سواهم من الشعراء.

وعليه فابن ابن سلام قد امتاز بقدرة كبيرة على تفسير الظواهر الأدبية، فقد ميّز بين شعر البادية التي يعتبرها منطلق الشعر العربي الأول، وشعر الحاضرة، ولهذا السبب أفرد شعراء الحواضر وخصّهم بالحديث في القسم الذي قصره على شعراء القرى؛ وقد علّل في هذا القسم كثرة الشعر في بيئة قروية دون أخرى، بدافع كثرة الحروب،كما ذهب إلى أن مخالطة الشاعر للريف واقترابه من المدن واحتكاكه بالحضريين، يورث شعره ليونة على نحو ما رأى من شعر عدي بن زيد مثلا.[27]

وقد أردف شعراء القرى العربية بطائفة من شعراء اليهود، بلغ عددهم ثمانية شعراء، جعلهم طبقة قائمة بذاتها مع أن معظمهم كان يعيش في المدينة وما حولها.

والمتصفح لأشعارهم لا يدرك أن ثمة فروقا فنية دقيقة بين شعرهم، وشعر شعراء المدينة، أو شعر شعراء أي قرية من القرى العربية. ونظرا لأنهم يمثلون في رأيه طبقة واحدة، فلم يلتزم بالتقسيم العشري أو الرباعي في دراسته لهم.

4-مقاييس ترتيب شعراء الإسلام في طبقات عند ابن سلام:

أما في دراسته للشعراء الإسلاميين، فقد التزم بدقة التقسيم العشري والرباعي حيث حصرهم في عشر طبقات، واضعا في كل طبقة أربعة شعراء. إذ وضع في الطبقة الأولى جريرا و الفرزدق والأخطل والراعي، وهذا باعتماد على آراء العلماء السابقين، الذين حددوا سلفا شعراء الطبقة الأولى الإسلامية التي تضم: جريرا والفرزدق والأخطل، وأضاف إليها ابن سلام الراعي.

وما حدث مع ابن سلام بالنسبة لأوس بن حجر الذّي وضعه في الطبقة الثانية من الجاهلين، واعترف بأنه نظير الأربعة أصحاب الطبقة الأولى، حدث معه في الطبقة الأولى الإسلامية، إذا احتوت الراعي مع جرير والفرزدق والأخطل، فالراعي أولى به الطبقة الثانية أو غيرها، ولكن قاعدة أربعة رهط لكل طبقة، هي التي جعلت الراعي يزاحم الثلاثة الفحول[28].

لقد أضاف ابن سلام "الراعي" لشعراء الطبقة الأولى الإسلامية، وهذا لاشتراكه مهم في "الهجاء" يقول ابن سلام "والراعي عبيد بن حصين كان من رجال العرب ووجوه قومه...وكان مع ذلك بذيئا هجّاء لعشريته"[29].

من هنا يتّضح أن ابن سلام جعل من "وحدة الغرض" مقياسا نقديا في تصنيفه لشعراء الطبقة الأولى الإسلاميّة، ومما يؤكد ذلك إضافة الراعي لهذه الطبقة لاشتراكه مع شعرائها في فن الهجاء.

وإذا انتقلنا إلى الطبقة الثانية الإسلامية، نجد ابن سلام يفصح عن مقياس آخر جعله يفضل "تعدد الأغراض" على " الإجادة الفنية"، وهذا ما نراه جليا في وضع"كُثير" في الطبقة الثانية، في حين أخّر جميلا إلى الطبقة السّادسة رغم اشتراكهما في "فن الغزل ".

يقول ابن سلام "وكان لكثير في التشبيت نصيب وافر، وجميل مقدم عليه وعلى أصحاب النسيب جميعا في النسيب، وله في فنون الشعر ما ليس لجميل، وكان جميل صادق الصبابة، وكان كثير يتقوّل، ولم يكن عاشقا، وكان راوية جميل "[30]

فإذا كان الشاعران قد اشتركا في فن واحد هو "الغزل"، فإن جميلا يتفوق على كثير في هذا الفن، ومع ذلك نجد ابن سلام يقدم كثير عليه، والسّر في ذلك يكمن في اقتصار جميل على غرض واحد هو "الغزل" أما كثير فقد جاب مختلف الأغراض الشعرية والتي من أبرزها المدح.

أما إذا انتقلنا إلى الطبقة التاسعة التي تضم كلا من: الأغلب العجلي، و أبو النجم، والعجاج، ورؤبة بن العجاج، فإننا نصاب بالاستغراب ونحن نرى أن ابن سلام يؤخر رؤبة إلى هذه المرتبة وكذا أبيه. فهو يقول عن العجاج" وإنما اكتفينا بنسبه لشهرة اسمه وبعد ذكره..."[31].

ويقول عن ابنه رؤبة: "ورؤبة أكثر شعرا من أبيه: وقال بعضهم إنه أفصح من أبيه"[32]. فالعجاج رغم الشهرة التي يحظى بها و دوره البارز في " الرجز" إلا أنه أخره إلى هذه الطبقة، والحال نفسه بالنسبة لابنه رؤية الذي فاق أباه في الشعر.

من هنا نرى أنه على الرغم من أن ابن سلام كان مصيبا في آرائه النقدية العامة التي عبر عنها في مقدمة كتابه، إلا أنه عندما مارس نقد الشعر عمليا خانته حاسته النقدية في بعض الأمور السابقة الذكر[33].

و مما يجدر ملاحظته أن بعض النقاد المعاصرين، أخذ على ابن سلام أنه انشغل كثيرا بدراسة أخبار شعراء الطبقات، وذكر بعض أشعارهم، دون الالتفات إلى تحليل أشعار هؤلاء الشعراء والكشف عن قيمتها الفنية[34].

ونحن لا ننكر القول بأن ابن سلام لم يعن في دراسته للشعراء بتحليل أشعارهم تحليلا فنيا، ولكنه لم يكن الناقد الوحيد ضمن نقاد عصره، من وقف من نقد الشعر هذا الموقف، فمعظم النقاد – كالأصمعي والمبرد وابن قتيبة– كان يغلب عليه الاتجاه نحو التنظير، وإلقاء الأحكام النقدية، وعرض بعض القضايا التي تتعلق بنقد الشعر.

وعلى أية حال، فإن دراسة ابن سلام لسير الشعراء وأخبارهم التي تتمثل في ذكر نسب كل شاعر، وسرد بعض أخباره، ونماذج مختارة من أشعاره، وشفعها ببعض الأحكام النقدية، تجمع في طياتها فرعين من فروع الدراسات الأدبية هما: تاريخ الأدب، والنقد الأدبي، وفضلا عن كل هذا، فإن دراسة ابن سلام لطبقات الشعراء على النحو الذي رأيناه، تعد دراسة رائدة، بالقياس إلى دراسات النقاد في عصره، والعصور السابقة عليه، كما تعد مرجعا أساسيا لكثير من الأدباء والنقاد الذين اقتفوا أثره في هذه الناحية.

خاتمة:

من خلال تعرضنا لمفهوم الطبقة عند ابن سلام الجمحي يمكن الخروج بالنتائج الآتية:

– أن البدايات الأولى لفكرة الطبقات كانت لدى علماء الحديث، الذين كان لهم فضل السبق في ميلاد هذه الفكرة، التي وضعوا من خلالها رواة الحديث في طبقات بعد دراسة أسانيدهم.

– لقد كان اللغويون قريبي العهد بعلماء الحديث، و كان أغلبهم رواة حديث فقد استهوتهم الفكرة ونقلوها إلى المجال الأدبي ،حيث تمكن اللغويون من الوصول إلى الطبقة الأولى الإسلامية و نظيرتها في الجاهلية دون أن يكونوا على وعي تام بمعنى" الطبقة". وبقي الأمر كذلك حتى مجيء ابن سلام الجمحي في كتابه" طبقات فحول الشعراء"، الذي طور الفكرة، و أعطاها مدلولا اصطلاحيا جعله ينفرد بها دون سواه ممن تأثروا به من نقاد القرن الثالث.

– إن دراسة ابن سلام لسير الشعراء وأخبارهم التي تتمثل في ذكر نسب كل شاعر، وسرد بعض أخباره، ونماذج مختارة من أشعاره، وشفعها ببعض الأحكام النقدية، تجمع في طياتها فرعين من فروع الدراسات الأدبية هما: تاريخ الأدب، والنقد الأدبي، وفضلا عن كل هذا، فإن دراسة ابن سلام لطبقات الشعراء على النحو الذي رأيناه، تعد دراسة رائدة، بالقياس إلى دراسات النقاد في عصره، والعصور السابقة عليه، كما تعد مرجعا أساسيا لكثير من الأدباء والنقاد الذين اقتفوا أثره في هذه الناحية.

هوامش

1- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، تر:عبد الحليم النجار، (1983)، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية)، ج1، ص65 .

2- ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، (1978)، دار المعارف (القاهرة)، ص 255.

3- عثمان موافى: دراسات في النقد العربي، (2001) .دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية)، ص 105.

*- محمد بن سلام الجمحي: ولد في البصرة سنة 139هـ/تلقى العلم عن كثير من علماء عصره،كأبي حاتم والرياشي و المازني وثعلب، وابن حنبل،وأبي خليفة الجمحي الذين كانوا رموز الثقافة الإسلامية والعربية في عصره.توفي سنة 213هـ /انظر معجم الأدباء ص160،وطبقات النحويين واللغويين ص180.

4- محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، (1952)، دار المعارف (القاهرة)، ج1، ص ص 23،24.

5- المصدر نفسه، ص 68.

6-إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن من الهجري، (2006)، دار الشروق (عمان)، ص 41.

7- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح : محمد عبد الحميد هنداوي، (1981) ، دار الجيل (بيروت)، ج1، ص131.

8- المصدر نفسه، ص ن.

9- عبد الملك بن قريب الأصمعي: فحولة الشعراء، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، (2005)، دار الجيل (بيروت)، ص16.

10- عثمان موافي: دراسات في النقد العربي، ص 109.

11- محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ج1، ص 65.

12- المصدر نفسه، ص 68.

13- ينظر: عمار ويس (المقاييس النقدية عند ابن سلام)، 1981، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة1/ الجزائر، ص131.

14- ينظر: رجاء عيد: قراءة في كتاب "طبقات فحول الشعراء لابن سلام، السنة: 1986، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مجلد6، العدد 2، ص 112.

15- ينظر مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب، (1993)، دار العلم للملايين (بيروت)، ص 27.

16- محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ج1، ص50.

17- المصدر نفسه، ص 97.

18- المصدر نفسه، ص ن.

19- المصدر نفسه، ص137.

20- عبد الله بن مسلم بن قتيبة: الشعر والشعراء، تح : مفيد قميحة ، محمد أمين الضناوي، (1981)، بيروت (لبنان)، ج1، ص41 .

21- ينظر علمي لراوي (اتجاهات النقد الأدبي من العصر الجاهلي حتى نهاية القرن الثالث الهجري)، 1987، رسالة ماجستير،

جامعة قسنطينة1/ الجزائر، ص 89.

22- محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ج1، ص 138.

23- المصدر نفسه، ج1، ص 147.
24- رجاء عيد: المصطلح في التراث النقدي، (2000)، منشأة المعارف (الإسكندرية)، ص 46.
25- زياد كامل: نظرية الشعر عند ابن سلام، السنة 1981، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب،دمشق، مجلد 5، العدد 120، ص ص155،156.
26- محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ج1، ص 140.
27- محمود الربداوي: نصوص من النقد الأدبي عند العرب، (1969)، مكتبة دار الفتح (دمشق)، ص 12.
28- منير سلطان: ابن سلام وطبقات الشعراء، (1977)، منشأة المعارف (الإسكندرية)، ص238.
29- محمد بن سلام الحجمي: طبقات فحول الشعراء، ج2، ص 502.
30- المصدر نفسه، ج2، ص545.
31- المصدر نفسه، ج2، ص 754.
32- المصدر نفسه، ج2، ص 761.
33- عز الدين إسماعيل: المصادر لأدبية و اللغوية في التراث العربي، (2003)، دار المسيرة (عمان)، ص 186.
34- محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، (1996)، نهضة مصر (القاهرة)، ص 21.